

ومنهن المترددة بين ذلك، ولكنهن على هذا فرحات مرحات فيما ترى؛ لأن حياتهن لم تقتضب في غير إبانها، ولأن شبابهن لم يُردَّ عنهن ردًّا عنيفًا.»

وكانت هذه الألفاظ التي كانت شهرزاد تنطق بها متقطعة متفرقة تبلغ أذن الملك لاذعة، وتنتهي إلى قلبه موجعة، ولم تتمها شهرزاد حتى كان الملك قد ثاب إلى نفسه واستجمع شعوره كله، وأخذ يعرض ما رأى يقظًا ونائمًا، ولكنه ينظر فيرى نفسه في زورقه ذاك، ويرى الزورق ينحدر به في النهر متجهًا صوب البحيرة التي جاء منها، وعن يمينه وشماله تلك الجماعات من الفتيات يحين بالأزهار والغصون والغناء، ولكن في تحيتهن حزنًا أشبه بهذا الحزن الذي تصوره تحية الوداع.

وينظر الملك إلى شهرزاد فيراها جالسة منه غير بعيد معرضة عنه وعن الزورق وعن شاطئ النهر الجميلين وعن جماعات الفتيات وما يحين به أزهار وغصون وغناء، وقد أطرقت تنظر في كتاب.

قال الملك دهشًا: «تقرئين! يا عجبًا! أنى لك هذا الكتاب؟!»

قالت شهرزاد في لهجة التي لا تكثر بما تسمع ولا تهتم لما تقول: «يا عجبًا! أنى لنا هذا الزورق، وأنى لنا هذا النهر الذي ننحدر فيه، وأنى لنا هذه البحيرة التي نقبل عليها؟! انظر أيها الملك السعيد»، قالت ذلك وأشارت أمامها بيدها، ونظر الملك فلم تبتهج نفسه لما رأى، وإن امتلأت إعجابًا به وعجبًا له.

فقد رأى النهر يتسع من ضيق، وينفرج من تقارب، ويشد البعد بين شاطئيه حتى يمتزج بالبحيرة امتزاجًا، ورأى وجه النهار قد امتنع وأسبغ عليه شحوب عجيب يشيع في النفس ألمًا هادئًا وحزنًا فاترًا، ولكنهما على ذلك يؤذيان النفوس، وأحس كأن كل شيء من حوله قد أدركه شيء من ذبول؛ فالنسيم فاتر فيه شيء من حرارة مؤذية، والأمواج متضائلة تصطفق اصطفاقًا خفيًا كأنما تحاول أن تشكو ألمًا خفية، فلا تستطيع الجهر بما تجد إلا في مشقة شاقة وعسر عسير، والطير تحاول أن تتغنّى صافآت في السماء أو راقصات على الغصون، ولكنها تتغنّى فاترة حتى كأن غناءها أشبه شيء بالأنين أو الشكاة، وأشعة الشمس هادئة ذابلة تمس ما حولها في فتور كأنها تصدر عن جذوة أوشكت أن تنطفئ، وهي من ذلك تحمل حرًا رطبًا ثقيلًا تندى له الجباه ويتصبب له العرق أحيانًا.

كل شيء هامد خامد، وكل شيء جامد راكد، وفي الجو فتور لا يحتمل وثقل لا يطاق، وإذا نفس الملك تمتزج بهذا كله، وإذا قلبه يخفق في صدره خفقًا ضئيلاً ثقيلًا، وإذا نفسه تصطبغ بحزن شاحب مُمضٍ، وإذا هو يصبح كله حزنًا وركودًا كما أن ما حوله حزن